كلية العلوم الاجتماعية شعبة الانثروبولوجيا

د.عبد اللاوي ليندة مقياس : ميادين الانثروبولوجيا

السنة الثانية LMD أنثروبولوجيا

عنوان المحاضرة: الانثروبولوجيا الاقتصادية

المحاضرة الثالثة: التبادل

مقدمة:

يعد التبادل أحد المفاهيم الأساسية في الانثروبولوجيا الاقتصادية لأنه يعبر عن ظاهرة اقتصادية سادت كل المجتمعات البشرية وبخاصة البدائية منها. يقصد بنظام التبادل انتقال البضئع والخدمات في حركة مباشرة بين طرفين ، نفترض أن الشخص(أ)يعطي شيئا ما للشخص (ب) وعندما يستلم الأخير يقوم بدوره باعطاء شئ ما للشخص(أ) وقد تبدو عملية التبادل عملية بسيطة تقوم على أساس القيم المتوازنة للأشياء التي يتم تبادلها ولكن عملية التبادل ليست بسيطة كما تبدو فهي تتضمن عوامل اجتماعية واقتصادية أكثر تعقيدا .

انه مبدأ من مبادئ الحياة الاقتصادية لكنه يتّخذ أشكالا كثيرة ، وليس من الضروري ان تصنف كل تدفقات الموارد على أنها تبادلات.

أنواع التبادل:

يصنف الانثروبولوجي الاقتصادي الشهير مارشال سالينز Marchal Sahlins التبادل الى ثلاثة أنواع:

التبادل العام:

يوضح سالينر أن التبادل العام هو العطاء الذي يعبر عن انكار الذات والاستعداد لتقديم المساعدة والمشاركة وحسن الضيافة بالالتزام نحو التبادل ...فالشخص الذي يعطي لا ينتظر المقابل وفي هذا النوع من التبادل يكون العطاء االمادي أفل أهمية بكثير من العطاء الاجتماعي وخير مثال على ذلك هو العطاء الذي يقدمه الوالدان للطفل ، فهم يقدمون له كل شئ دون أن يتوقعوا منه تبادل العطاء.[1]

التبادل المتوازن:

يحدث التوازن بين طرفين بحيث يقدم الأشخاص شئ ما لشخص آخر، ويحصل منه في نفس الوقت على شئ آخر مقابل ما قدمه له، على أن يتساوى معه في القيمة وبدون تأخير أي أن التبادل المتوازن يتضمن نفس أنواع البضائع ونفس الكميات التي يتم تبادلها ...وعلى ذلك فان الجوانب المادية في التبادل المتوازن لا تقل أهمية عن الجوانب الاجتماعية .[2]

التبادل السلبي:

يقوم هذا النوع من التبادل على أساس محاولة الحصول على شئ دون مقابل ، ولا يدخل فيها النواحي الشخصية. كما أن الجوانب المادية التي لها طابع اقتصادي هي أهم شئ في عملية التبادل السلبي ولا يوجد أي تفاعل بين الطرفين.[3]

ان التبادل مبدأ هاما من مبادئ الحياة الاقتصادية ، لكنه يتخذ أشكالا كثيرة وليس من الضروري أن نصنف تدفقات الموارد على انها تبادلات .[4] وقد عمل كلا من بواز ومالينوفسكي على ايضاح نماذج التبادل التي سادت داخل بعض المجتمعات البدائية .

---

[1] أنظر : عامر مصباح، مدخل الى علم الانثروبولوجيا، دار الكتاب الحديث للنشر، 2020

[2] المرجع السابق

[3] المرجع نفسه

نظام البوتلاش:

قام فرانس بواز من خلال دراسته لنظام "البوتلاش" لدى قبائل الكوايكويتل Kwakiutl (هنود الساحل الشمالي الغربي لأمريكا) بتحليل هذا النطام القائم على صراع الثروة وهي في صلب العملية الاقتصادية.

يعتبر نظام البوتلاش نظاما اجتماعيا يلجؤ اليه أعضاء المجتمعات البدائية للتخلص من فائض الانتاج الذي تجمهه الأسرة ، وكلمة بوتلاش مضهورة في لغة الشينوك Chinook لدى قبائل الهنود وتعني الاطعام to nourish او الاستهلاك to consume و أحيان أخرى العطية او الاهداء لدى زعماء قبائل يقومون بحفلات موسمية يوزعون فيها ثرواتهم وأحيانا يدمرونها في تحد لخصومهم الذين عليهم رفع التحدي واعادة توزيع ما تلقوه. انها حفلات للتظاهر بالثروة وتبذيرها عبر توزيعها أو اتلافها في اطار قد يسبّب "صراع السخاء". فالقوي هو الذي يستطيع منح أكبر قدر من الثروة في تنافس حاد يحتل فيه العرض والرهان. [5]

تقام حفلات البوتلاش في مناسبات مختلفة أبرزها: الزواج ، الدفن، التوريث، ابان ابرام اتفاقيات السلم ، الانتقال الى مرتبة اجتماعية جديدة في اطار طقوس المرور....الخ.

والبوتلاش هو عبارة عن حفل كبير يقوم به أثرياء القبيلة ويدعى اليه رؤساء العشائر المجاورة ، ويتناولون فيها الاطعمة وتوزع عليهم الهدايا ، و يعتبر مناسبة اجتماعية لاظهار العظمة والتفوق وابراز المكانة الاجتماعية ، و يعتبر الرجل الذي يعطي هدايا كثيرة أو يتخلص من ثروته بحيث لا يستطيع شخص آخر ان يتفوق عليه هو صاحب المكانة الاجتماعية في حفل البوتلاش.[6]

يؤدي نظام البوتلاش وظائف عديدة فمن خلاله يتم اعلان التغيرات في المراكز الاجتماعية ، كما يلعب دورا هاما في تضامن وتماسك القبيلة وعلى اعادة توزيع البضائع . وفي هذا الصدد قد نذكر

---

[4] كريس هان وكيث هارت، الانثروبولوجيا الاقتصادية : التاريخ والاثنوغرافيا **والقد،مرجعسابق** ، ص 23

[5] **رحل** بوبريك، **مدخل الى** الأنثروبولوجيا، **مرجعسابق**، ص ص 155

[6] **أظر**: محمد حسن غامري، مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة **"علم الانسان"**

مثال قبيلة الهايدا – ضمن قبائل الهنود الحمر– أين تتعدد المناسبات الاجتمعية التي يقام فيها حفل البوتلاش ، فنجد: بوتلاش الجنازة ، بوتلاش استرداد الكرامة وبوتلاش الثأر.

لكن بصفة عامة، وان كان هذا النظام في جوهره هو نظام اجتماعي وشعائري يهدف في مظهره السطحي الى اكتساب المزيد من السمعة والشرف وذلك عن طريق تدمير أكبر قدر من الممتلكات الشخصية الا أنه في الحقيقة يهدف الى تحقيق أغراض أخرى أكثر أهمية من الحصول على المركز الاجتماعي وهي تحقيق التوازن الاقتصادي داخل المجتمع والقضاء على التناقضات الاقتصادية التي تنجم عن تراكم الثروات وفائض الانتاج كما يعمل على اعادة توزيع الثروات وبذلك فهو يلعب دورا هاما في [7]تنمية وانعاش الحياة الاقتصادية داخل المجتمعات البدائية التي تمارس هذا النظام.

نظام الكولا:

يعتبر نظام الكولا مثالا قديما يوضح طريقة التبادل في المجتمعات البدائية في غينيا الجديدة وقد سبق أن وصفه برانسلاف مالينوفيكي في كتابه "الارجانوس" عام 1922. فهو نظام خاص من التجارة في حلقة مغلقة يخص تبادل سلعتين اثنين ليس لهما أي قيمة أو فوائد أو منافع عملية بينما لهما قيمة شعائرية كبيرة لدى تلك المجتمعات . تتجسد هذه السلعتين في :

الموالي MWALI : وهي أساور من الصدف الأبيض الحر.

السولافا SOULAVA : وهي عقود طويلة من الصدف الأحمر .

قد يبدو لنا أنها حلي ذات قيمة مادية كونها تصنع من الصدف الحر لكن الحقيقة انه ليس كذلك، فهي لا تستخدم للزينة .[8]

نظام الكولا عبارة عن حفلة كبيرة يقوم بها أثرياء القبيلة ويدعى اليه رؤساء العشائر ويتناولون في هذا الحفل الأطعمة وتوزع عليهم الهدايا و ان الرجل الذي يعطي فيها هدايا كثيرة أو يتخلص من كل

[7] المرجع نفسه، ص 111
[8] محمد حسن غامري ، مرجع سابق ، ص 108.

ثروته يرتقي الى مركز اجتماعي أعلى وقد يدخل مع سكات بعض الجزر المجاورة في تحالف واتفاق حول تبادل أشياء أو سلع معينة تبقى أبرزها "السولافا" و "الموالي، وان انتقال كلاهما من مجتمع لآخر في اتجاه واحد لا يجوز تغييره وهنا القيمة المادية لكلاهما ليست الأهم بقدر القيمة المعنوية كون لهما قيمة شعائرية .

يسير نظام الكولا على قواعد أساسية هي:

- ✓ المنطقة الجغرافية التي يحدث فيها نظام الكولا وعلى شكل نظام دائري ، تتحرك فيه تجارة السولافا في اتجاه عقارب الساعة . بينما تتحرك تجارة الموالي في الاتجاه المعاكس.
- ✓ لا يحتفظ أي شخص بملكية هذه الأشياء لفترة زمنية طويلة وانما يتبادلها.
- ✓ تعتبر تجارة الكولا هي أحد أشكال التفاعل بين الأفراد الذين يعيشون في مجتمعات مختلفة وقد تكونت بين هؤلاء الأفراد علاقات شخصية طوال الحياة وتنشأ العلاقات بين الزعماء بدرجة أكبر من تلك التي تنشأ بين بقية الناس ، كما أن كبار السن لديهم علاقات أكثر من العلاقات لتي تنشأ بين الشباب.[9]

الهدية، التبادل، والأنساق الرمزية:

كان لمارسل ماوس أيضا اسهامات في اثراء الدراسات الأنثروبولوجية الاقتصادية خاصة فيما يخص التبادل ونماذجه داخل المجتمعات البشرية . ان عمل مارسيل موس «الهدية: أشكال ووظائف التبادل في المجتمعات القديمة» يعد من بين أكثر أعماله انتشاراً خارج فرنسا، وقد يكون العمل الأنثروبولوجي الأبرز الذي ترك تأثيراً واسعاً في العالم الأنجلوساكسوني، حيث تم الاستفادة القصوى من كل الدلالات والمضامين التي احتواها.2 كما أنه وعلى الرغم من أن أهمية دراساته الأخرى كتلك التي عن السحر، والأضحية، وربما أكثر أيضاً عن التصنيف البدائي، إلا أن من الصعب التعرف على تأثيره في هذه الحقول، وذلك بسبب ولوج دراساته في التراث النظري العام الذي عادة ما

[9] المرجع نفسه ، ص 109

كان يقوم بتوظيفه زملاؤه ومريدوه، إلا أننا لا يمكننا تجاهل تأثيره الهام على أنثروبولوجيين بارزين مثل: «رادكليف براون: 1881-1955» و«برانسلاف مالينوفسكي: 1884-1942»، حيث كان لكل منهما طريقته الخاصة في تحوير رؤيته الدقيقة لـ «الدوركايمية». لقد امتد تأثير موس ليشمل آخرين مثل: «إدوارد إيفانز بريتشارد: 1902-1973» و«ريموند فيرث: 1901-2002»، و «ملفيل جان هرسكوفيتز».

و«لويد وارنر» و«روبرت ردفيلد: 1883-1958». بل امتد تأثيره بصورة عامة ليضم أنثروبولوجيين آخرين أسهموا في بروز أعمال متميزة، سواء في مدرسة أكسفورد مثل «إدوارد إيفانز بريتشارد»، أوفي مدرسة ليدين مثل «فان أوزنبراين» و«جوسلين دويانغ»، ولكن الجوانب الفنية في أعماله لا تزال تنتظر الفرصة الكبيرة لاكتشافها وتوظيفها.

يعد عمل موس «الهدية: أشكال ووظائف التبادل في المجتمعات القديمة» من أكثر أعماله تميزاً وبروزاً،[10] وهو المثل الأوضح على كيفية دراسته لما أسماه بـ «الحقائق الاجتماعية الشاملة»، بل ومن حيث الاهتمام بظاهرة اجتماعية محددة، ولكن بمنظور مزدوج أي «بشموليتها ومجمل أنساقها».[11]

المقصود هنا هو «التمثيلات»، أو أنساق التبادل، التي تبدو نظرياً أنها طوعية وغير ذات أهمية وربما تلقائية، ولكنها في الواقع ملزمة ومهمة، لقد ركز موس على قيامه بالدراسة المقارنة لأشكال التعاقد والتبادل في «بولينيزيا» و«الملانيزيا» وشمال غرب أمريكا، مع بعض الأدلة المكملة من الآداب الرومانية المبكرة والهندوسية والجرمانية. وكانت أطروحته المركزية هنا هي دراسة الشكل القديم للتبادل، والتزاماته الثلاثة: «العطاء، والأخذ، وإعادة العطاء»، أي من حيث كونها صفات متوافرة تقريباً في كل المجتمعات، وهي بوصفها كذلك، يتم إعادة بعثها في مجتمعاتنا بهدف تقوية الروابط الاجتماعية والمحافظة عليها، أي على التعاون والمنافسة والصراع.

---

[10] أنظر: Mauss, M., The Gift: Forms and Fuctions of Exchange in Archaic Societies, 1925

[11] المرجع نفسه ، ص 77

إن دراسة هذه الموضوعات بشكل تفصيلي وملموس وضمن إطار كليتها حسب المجتمع الذي تم اختياره «سيجعلنا قادرين على النظر في جوهرها، وفي عملياتها، وحياتها، والعمل على الإمساك باللحظة الهائمة عندما يأخذ المجتمع وأعضاؤه أشياء عزيزة وعاطفية من أنفسهم ومن مواقفهم وذلك في مقابل أشياء أخرى»[12] تكشف لنا عملية تبادل الهدايا، حسب موس، بوصفها أمراً دينيّاً وقانونيّاً، وأخلاقيّاً، واقتصاديّاً، وجماليّاً، ومورفولوجيّاً، وأسطوريّاً من حيث الأهمية أيضاً.

إن الالتزامات المتضمنة فيها يتم التعبير عنها رمزيّاً عبر الأسطورة والمخيال ، بل وتأخذ شكل الاهتمام بالموضوع الذي يتم تبادله. ويؤكد موس أيضاً على أن الموضوعات المُتبادلة «لا يتم فصلها كلياً عن البشر الذين يقومون بتبادلها، إن المجتمع المشترك الذي يتأسس من حولها وكذلك الأحلاف التي يتم إنشاؤها متينة جدّاً لدرجة أنه يصعب حلها. إن التأثير الطويل الأمد للموضوعات التي يتم تبادلها، ماهو إلا تعبير مباشر عن الأسلوب الذي تحاول بمقتضاه الجماعات الفرعية في أنماط المجتمعات الإنقسامية القديمة تجنب الصراع المستمر، وبالتالي الشعور بحاجة بعضهم لبعض».[13]

عبر هذا العمل الأنثروبولوجي البارز «الهدية: أشكال ووظائف التبادل في المجتمعات القديمة»، سعى موس إلى شرح كيف أن الهدية التي هي أمر اعتيادي في الحياة اليومية، بل وتلقائي، إلا أن الأفراد الذين يدخلون في تبادلها إنما يقومون بتقديمها واستلامها وفق شعور بالواجب والمسئولية. كما أظهر موس كيف أن تبادل الهدية قد مر بثلاث مراحل تطورية، حيث انتقل من نظام «لزوم رد الهدايا»[14] الشامل، وتبادل يربط عشيرة بأخرى مثل المجتمعات التي لديها نظام «البوتلاش» أو نظام آخر مشابه يكون فيه التبادل تعبيراً عن التنافس أو الصراع أحياناً.

وقد انتقل هذا التطور بتبادل الهدايا إلى العالم المعاصر، حيث واصل الشكل القديم لنظام التبادل بقاءه، إلا أن السيادة أصبحت لأخلاق السوق، ويقترح موس علينا من خلال مؤلفه «الهدية:

---

[12] المرجع نفسه ، ص ص 77-78

[13] **المرجع السابق**، ص 31

[14] **انظر**:**شاكر مصطفي** سليم، **قاموس** الأنثروبولوجيا،(1981)، ص 769.

أشكال ووظائف التبادل في المجتمعات القديمة»، أن يتم الحد من فردية السوق، وذلك من خلال التأكيد على الجانب الإنساني الذي يُعطي قيمة رفيعة للعطاء مقابل الاستهلاك. هكذا يتضح لنا أن عمل موس «الهدية: أشكال ووظائف التبادل في المجتمعات القديمة» عدا عن أهميته الإثنوغرافية الكبيرة، فهو يعد أيضاً أول دراسة منهجية ومقارنة لـ «تبادل الهدايا»، بل بصفته تحليلاً مطولاً يكشف بوضوح العلاقة بين أنماط التبادل والبناء الاجتماعي.